تاريخ التعليم والتهذيب في الصين

على ذكر ثورتها والحرب الدولية فيها

طريقة التعليم التي اساسها الحفظ والتلقين وشحن الذاكرة بمختلف المعلومات هي طريقة الامم التي لم تؤت نصيباً وافراً من الحضارة وهي بصفة خاصة طريقة الامم الشرقية التي لا تزال على بعض حالتها الفطرية الاولى . وسنتصف على سبيل التمثيل طريقة الصينيين التي لا تزال رائجة عندهم الى يومنا هذا وهي طريقة سداها الحفظ والتلقين ولحمتها التقليد والمحاكاة ، طريقة عقيمة في التعليم والتهذيب كانت من جملة العوامل التي اعاقت هذه الامة الكبيرة العدد عن النهوض والتقدم . وطريقة الصينيين في التربية والتعليم هي طريقة المحاكاة والتقليد فهم يعبدون الاسلاف و يمجدون طرائق تفكيرهم في كل شيء و يطلبون الى النشء محاكاة الاسلاف في اسلوب الانشاء الكتابي الذي عليه مدار التعليم عندهم . ويجمل بنا ان نمهد بكلمة في لغة الصينيين حتى يسهل فهم الموضوع لان اتقان فهم اللغة الصينية القديمة هو اساس التعليم في بلاد الصين

من المعلوم ان اللغة العربية او الفرنسية او الانكليزية مجموع اشارات تمثل اصواتاً هي احرف الهجاء فيها ومنها تتألف المقاطع والكلمات والجمل اما اللغة الصينية فاشارات او صور كل اشارة او صورة منها تمثل فكرة او معنى او رأياً . فاللغة الصينية ليست من اللغات المعروفة باللغات الصوتية وانما هي معنوية او فكرية الاشارات والصور ولذلك فيها من الاشارات بقدر ما فيها من الافكار او المعاني واشاراتها كالارقام الحسابية كل منها تفيد معنى بمجرد رؤيتها وعدد هذه الاشارات حسب اجماع اهل العلم (٢٥٠٠٠) اشارة عدا الاشارات المهملة او غير المستعملة وعدا المترادفات . واذا حسبنا الاشارات التي تختلف معانيها باختلاف طريقة التلفظ بها اشارات مستقلة زاد عددها الى (٢٦٠٠٠٠) واذا عرفنا انهُ لا بدّ من حفظ هذه الاشارات كما تحفظ حروف الهجاء في اللغة العربية او غيرها من اللغات المعروفة لنا والمتداولة بيننا حكمنا بان مهمة التلميذ الصيني مهمة شاقة ولو قدرنا الاشارات ذات المعاني بالتقدير الاقل وهو (٢٥٠٠٠) على ان المستعمل بالفعل من هذه الاشارات نحو خمسة آلاف اشارة وهو مجموع ما في كتبهم المقدسة التسعة التي يجب حفظها ومحاكاة انشائها . وطريقة الكتابة في اللغة الصينية شاقة لان عندهم من الخطوط ستة اغاط متمايزة تعلّم الكتابة بها كلها او اكثرها . ومما ينبغي ذكرهُ ان ما يشغلهُ التلميذ الصيني

في المدرسة من اللغة وما يُلزَم بحفظهِ وعما كانهِ منها لا اتصال بينهُ و بين اللغة التي يتكلم بها فكانما يدرس لغة بائدة كلغة طسم وجديس اولغة حمير او اللغة اللاتينية او اليونانية القديمة . وليس لافعال اللغة الصينية صيغ تعيّن الزمن او تعين نوع الفعل اهو مبني للمعلوم او مبني للمجهول اشرطي هو او فعل امر. كذلك لا يستنبط من الاسماء ذاتها هل هي مؤنثة او مذكرة ام مفردة ام مثناة ام جمع. وهل هي فاعلة لحدث او واقع عليها حدث الخ وانما يعرف كل ذلك عندهم بموقع الاشارة بين غيرها من الاشارات او بالتلفظ بها على نحو مخصوص مثل غنّ او مدّ او وصل او فصل او ادغام او اشباع الخ فبساطة علم النحو والصرف في اللغة الصينية تزيد في صعوبتهِ و يجعل تعلمها على التلميذ عبئاً ثقيلاً ولا يستطيع طالب اللغة الصينية ان يكون ذا اسلوب ادبي بليغ في انشائها الاّ بعد درس طويل عمل سداهُ الحفظ ولحمتهُ التقليد والمحاكاة

﴿ ادب اللغة الصينية ﴾ يثبت لنا النظر في آداب اللغة الصينية وطريقة الاستفادة منها ان التهذيب والتعليم في الصين قائمان على اساس لغوي فضلاً عن ان لغة التعليم الصينية لغة بائدة اي لا تشبه اللغة الدارجة في الكلام والاستعمال الاّ قليلاً فان الطالب حين يدرسها لا يفهم منها شيئاً. والتلميذ الصيني الذي يدرس على هذه الطريقة يشبّه بتلميذ مصري نظاليهُ بان يحفظ غيباً مقطعات شعرية او نثرية من اللغة التركية دون ان يفقه لها معنى ونشترط عليهِ ان لا يخطئ حرفاً او يغفل اشارة . انهُ يردّد ما يحفظهُ بالتكرار كانهُ اسطوانة تدور على (الفونغراف) . ومجموع الكتب المقدسة في الصين المؤلفة باللغة الادبية البليغة لا تزيد على مجموع سور القرآن الكريم وهي الأبعضها تتضمن فصولاً في آداب السلوك والمعاملات الادبية من آثار كونفوشيوس فيلسوفهم وحكيمهم الشهير وتلاميذهِ واصحابهِ وتابعيهِ وهي اساس الديانة السائدة في الصين. و بينا نجد ديانة البوذيين والطاويين (نسبة الى الفيلسوف طاو الذي ولد سنة ٦٠٤ ق.م) تبحث في شؤون فلسفية بعقل وحكمة نجد الديانة الكونفوشيوسية قد شغلت برسم خطط في الآداب الاجتماعية والسياسية وسلوك الافراد وامتازت عليها بانها اساس التعليم والتهذيب في بلاد الصين كلها

﴿ عمل المدرسة ﴾ ينحصر في اتقان معرفة الالوف المؤلفة من الاشارات الصينية قراءة وكتابة وفي حفظ نصوص الكتب الدينية التسعة واقوال شراحها والبحث فيها وتحليلها احياناً كل ذلك لغرض واحد هو محاكاة الاسلوب البليغ المكتوبة بهِ

﴿ القراءة ﴾ يعكف التلميذ مدى سنوات عدة على حفظ الاشارات المدونة في

سلسلة من الكتب لا يزيد عددها على ستة وثالث هذه الكتب الستة يعرف بالالفية لانهُ يحتوي على الف اشارة ليس بينها اشارتان متشابهتين شكلاً اومعنى ولكنها مرتبة بحيث يتم بها حصول وزن وقافية او روي مخصوص . ومتى حفظ التلميذ هذا الكتاب تمت لهُ معرفة جانب كبير من الاشارات التي تتألف منها اللغة الصينية المدرسية ولكن درس هذا الكتاب اشق واصعب من ممارسة اللغة العربية او احدى اللغات الافرنكية اضعافاً مضاعفة . واذا قيل ان تعب التلميذ الصيني يعوض بما يجنيهِ من المواعظ والحكم في اثناء الحفظ والدرس كان الجواب ان تلك الفائدة تأتي عرضاً وهي ضئيلة في جانب عنائهِ ووقتهِ

وكما يبدأون في المدارس الاولية بتلقين التلميذ آيات من كتبهم المقدسة يشرعون يعلمونهُ ايضاً الخط والكتابة واذا علمت ان الاشارات الصينية كبيرة العدد معقدة التركيب كما تقدم وان الفروق بين اشكالها طفيفة جداً علمت صعوبة الكتابة عندهم وان كتابة اللغات الاوربية او العربية بالنسبة اليها هيّن اطفال . الاّ ان النجاح في الامتحانات الصينية الرسمية يتوقف على ما يصيبهُ الطالب من اتقان الخط كما يتوقف على حفظهِ وحسن محاكاتهِ لأسلوب القدماء . وفي التعليمين الاولي والابتدائي قلّ ان تكون هناك صلة بين ما يقرأهُ التلميذ الصيني وما يكتبهُ فالاشارات التي يلزم الطالب بمحاكاتها في الكتابة لا تكون عينهُ قد وقعت عليها من قبل ولا يفقه لها معنى ولا يجني من حصة الخط اية فائدة تعينهُ في دروسهِ الاخرى وقلّ ان يكتب تلميذ ما يمكن ان يفهمهُ الاّ اذا وصل الى درجة الانشاء والتحرير

﴿ اتقان الأدبيات ﴾ التعليم العالي في الصين ينحصر في استظهار الكتب المقدسة التسعة استظهاراً جيداً وما يليها من الشروح والتعليقات المذيلة بها وهنا يلزم الطالب بفهم المعنى بل باكثر من فهم المعنى يلزم بمحاكاة السيغة وتدبر الاسلوب . ومدة هذا التعليم العالي غير محدودة وانما يفرغ الطالب منهُ بالنجاح في الامتحان الحكومي الذي يفضي بالطلبة الناجحين الى المناصب الرسمية . وكثيراً ما يفني الطلاب زهرة عمرهم من صباهم الى ان يدركهم المشيب من غير ان ينجحوا في الامتحانات او يفوزوا من المناصب بطائل . وتروى حوادث عجز فيها الطالب عن النجاح في الامتحان وعجز ابنهُ وحفيدهُ من بعدهِ الكل شيبوا وشابوا دون بلوغ المأمول والكل افنوا اعمارهم في دراسة شاقة مملة طويلة لا طائل تحتها

﴿ الانشاء البليغ ﴾ والتمكن من تقليد اسلوب البلغاء المتقدمين ترى الطلاب لا يكتفون بحفظ المتون والشروح بل يدرسونها جميعاً درساً جيداً فاذا بلغ الطالب الصيني هذه الدرجة فكأنهُ جاز اشق امتحان وشهد لهُ بالعلم والمعرفة فبلغ غاية ما يبلغهُ العقل

البشري من أشرف المراتب واسماها . واذ كانت غاية الغايات في ذلك النظام التعليمي تربية هذه القدرة على انشاء مقالات تحاكي اساليب المتقدمين في لغة بائدة فاحر بذلك النظام التعليمي في بلاد الصين ان يقارَن بالاسلوب الذي جرت عليهِ الكليات الاميركية والانكليزية في حمل التلاميذ على استظهار الشيء الكثير من بليغ الكتابات اللاتينية واليونانية ثم محاكاتها بانشاء مقالات من اقلامهم. على ان هناك فرقاً بين الصينيين والانكليز او الاميركيين فهؤلاء جعلوا هذا التعليم وسيلة واولئك جعلوهُ غاية وموضوع الكلام القديم البليغ في اللغة الصينية ثابتٌ وعلى الضدّ من ذلك ما كُتب باللغة اللاتينية او اليونانية فانهُ سام جليل متنوع ملؤهُ الحكمة والآراء الطريفة

﴿ المدارس ﴾ المدارس الاولية التي يدرس بها المنهج الموصوف آنفاً منتشرة في كل قرية صينية تقريباً ومثل هذه المدارس القروية الاولية يقوم كيانها على تبرع المحسنين و يُعلِّم فيها اما طلاّب رسبوا في الامتحانات الراقية او اساتذة حصلوا على الاجازات الدنيا ولم يجدوا عملاً في دوائر الحكومة — وليس للمدارس عندهم دورٌ خاصة بالمعنى المفهوم لدينا بل قد تكون المدرسة في اي محل او غرفة خالية بمنزل من المنازل او دار من دور العبادة او منعطف او زقاق محجوب عن السماء . واليوم المدرسي طويلٌ يستمر العام كلهُ من غير اجازة صيفية او مساحة طويلة والاساتذة والتلامذة يكادون ينقطعون عن العالم فينفقون كل اوقاتهم في الدرس والتعليم فلا لعب ولا ترويح عن النفس لان في ذلك عاراً وشناراً . ومع ان اجور المدارس الاولية القروية طفيفة فان الاقبال عليها ضعيف لان الصينيين يعتقدون ان الامل بالانتقال من المدرسة الاولية الى التي ارقى منها ضعيف وان الامل بالانتقال من هذه المدارس الى ما هو ارقى منها اضعف وان النجاح في الامتحانات العالية واحراز ما يترتب على ذلك من المناصب دونهُ خرط القتاد . لذلك قلّ اقبالهم على المدارس الاولية بصفة خاصة وعلى معاهد التعليم بصفة عامة وكانت لذلك النظم التعليمية القديمة في بلاد الصين من اسوأ واخسر ما عرف عن نظم التعليم في الماضي والحاضر . فالاكثرية الساحقة من الراسبين في الامتحانات لا يعود عليهم ما حصلوا من علم او انفقوا من وقت باقل فائدة والتعليم الصيني لا يؤهل صاحبهُ الاّ لتقلد منصب حكومي فاذا لم يحصل عليهِ فلا يشتغل بغير التعليم الاّ اذا عرض نفسهُ للاحتقار وللازدراء ولذلك اندفع كل الخائبين الى وظائف التعليم فكانت عندهم حقيرة غير موفورة الرزق

حسين لبيب — ناظر مدرسة الفلاسفة